الفكر والمنهج عند النورسي

١ - كيف نفهم «النورسي»؟

من هو «النورسي» رحمه الله...؟ وما السبيل لفهمه..؟ ومع اي من اصحاب الأقلام نصنفه..؟ وفي اي حقل من حقول المفكرين المعنيين بالإيمان ندرج اسمه..؟

هذه الاسئلة وامثالها ما زالت حتى اليوم وبعد مضي ما يقرب من ربع قرن على وفاته تراود ذهن الناقد الذي يقرأ «النورسي»، وتلح عليه لكي يجد لها الجواب الشافي، ليضع هذا المفكر المسلم في «مفهومة» معينة من مفهومات المدارس النقدية، او يصنفه ضمن واحد من الاصناف التي يصنفون بموجبها المفكرين واصحاب الرأي والقلم من المعنيين بشؤون الدين والايمان..

وانسان ألمعي كـ «النورسي» اذا كتب عن «الحياة والانسان والايمان» فلابد ان يبدع ايما ابداع ويأتي بكل طريف وجديد.. وهو حين يتناول القلب الانساني ويلمسه بأنامل ايمانه لا يغادره حتى يضئ وينير.. ويظل يحفر في صخور النفس حتى تتفجر فيها ينابيع الخير والجمال.. وهو كذلك يحاور العقل المتفلسف ويناقش منطقه، ويناوش شكه ولا ينفك عنه

حتى يهرع مطمئناً الى الايمان واليقين.. وهو في غمرة هذه الاهتمامات العالية لا ينسى ان يكتب للحزانى والمكروبين مواسياً، ويسري عن «المرضى والشيوخ» آلامهم واوجاعهم، ويسكب في قلوبهم وارواحهم بلسم الامل وترياق العزاء...

فمفكر عملاق مثل «النورسي» يمكن للمدارس النقدية جميعها ان تجد لها حظاً فيما ترك من عظيم الاعمال، وغزير الاهتمامات، ولكن يصعب على واحدة منها ان تحتويه او تعتبره واحداً من روادها دون منازع..

ورغم انه هين لين سهل النفاذ الى القلوب والعقول، فانه «مفكر صعب» يحار الناقد مع الوان فكره المتشابكة، كيف يميز اللون الذي له التفرد والغلبة على بقية الالوان.

٢ - منهج «النورسي» والفلسفة:

والرأي الجامع في «النورسي» والذي لا اظن ان اثنين يختلفان عليه، هو كونه مجدداً في كل ما تناوله من شؤون الدين والفكر والحياة.. وهو تجديد ينتظم مناهج البحث وطرائق العرض، وأساليب المعالجة..

ولكونه يملك عقلاً تركيبياً جامعاً، وفكراً استيعابياً شمولياً، واهتماماً بالكليات الاساسية العامة التي تندرج تحتها جزئيات اية قضية يعالجها ومفرداتها، فانه يبدأ بهذه الجزئيات والمفردات في بناء صروحه الفكرية، فيعلو تدريجاً ويعلو، ضمن منهج ذهني طويل النفس، واضح المعالم، مستعيناً في عملية البناء وترسيخ الاسس بالامثال في غالب مايتناول من افكار مجردة، حتى يكتمل الصرح، ويقعد البناء على قاعدة كلية واساس

عام راسخ.. ثم يبدأ بوضع اللمسات الاخيرة في هذا البناء، ويتوجه بالآية الكريمة من كتاب الله، او الحديث النبوي الشريف من سنة الرسول ﷺ. فاذا بالآية او الحديث وقد سطعا بنورهما فوق هذا الصرح، وانارا زواياه وجوانبه، واضاءا اطرافه، فيدلف القارئ اليه محاطاً بالنور من كل جانب فلا يتعثر في مشيه، ولا يتهجس في سيره.

على ضوء ما تقدم هل يمكن اعتبار «النورسي» فيلسوفاً..؟ او عقلياً يعتمد العقل اساساً فيما يعالج من امور الفكر والدين والحياة..؟

صحيح ان منهجه يشبه الى حد ما مناهج الفلاسفة العقليين، وصحيح انه يلتقي معهم في «العقل التركيبي الجامع، والفكر الاستيعابي الشمولي، والاهتمام بالكليات» الا انه يمضي ابعد منهم ويتجاوزهم، ويسمو فوقهم بمراتب.. ذلك لان الفلاسفة – والتقليديين منهم بشكل خاص – يقفون عند حدود العقل لا يتجاوزونه، ولا يرون ما وراءه او بالاحرى لا يريدون ان يروا ما وراءه. اما «النورسي» فيظل ماضياً مع العقل الى حدود ما يستطيعه ويطيقه، فاذا كلّ وتعب جاوزه الى «الحدس» الذي هو اسرع انتقالاً في الفهم والاستنتاج، واصدق احساساً بالحقيقة من العقل، وارهف شعوراً بعالم «ما وراء العقل»، وأقدر على النفاذ في اعماق الغيوب.

٣ – «النورسي» والتصوف:

ولا تحس وانت تقرأ «النورسي» في بناه الفكرية بما تحسه في بنى المفكرين الآخرين، من صرامة المنطق، وثقل البناء، وجهامة الاسلوب.. بل تحس بالرجل وكأنه يدفع بأفكاره – قبل ان ترى النور – الى قلبه لترق هناك وتشف، وتخرج من ثمة ترف رفيف الفراش، فيلتقطها قلم روحي المنبت،

سماوي المداد، كوني اللون والضوء، فلا تكاد عينك تصافح ما كتب حتى ينفذ الى قلبك بلمحة خاطفة، ويسري الى روحك كما يسري البرق في ظلمة الليل، ثم يتلقفه ذهنك وله من قلبك وروحك – في الفهم – سند أي سند..

هذه الطريقة في الكتابة التي تبدأ ذهنية في جزئياتها واولياتها، وتنتهي روحانية قلبية ذوقية في قمتها، هي التي أوقعت بعض الذين قرأوا «النورسي» في خطأ اعتباره صوفياً كبيراً، او صاحب مدرسة صوفية جديدة.

ولاشك ان «النورسي» قد عرف التصوف معرفة تامة، وخبر اصوله، ومارس في حياته بعضاً من الوانه، وقرأ لعمالقة التصوف وتأثر بهم.. وكشف عن عقده ومشاكله، واطلع على مزالقه، وشاهد ايجابياته التي تخدم «الايمان» وترفده وتقويه، ووقف على مهاويه ومخاطره التي اهلكت خلقاً كثيراً، وقد تضمنت رسالته «التلويحات التسعة» مجمل آرائه في «التصوف».

وهو وان كان يكن للتصوف الصافي الخالص من الشوائب، والنابع من السنة النبوية الشريفة الاحترام والتقدير. الا انه لم يكن صوفياً، وهو صاحب المقولة المشهورة: «ان عصرنا عصر انقاذ الايمان».

وهو يعتبر «التصوف مرحلة من مراحل الارتقاء الايماني، وليس قمة هذا الارتقاء، وثمة درجة اعلى منها واسمى هي درجة التلقي عن القرآن الكريم مباشرة واعتبار القرآن الكريم الاستاذ والشيخ والامام الذي ينبغي للمسلم ان يستمد منه الهمم والامداد.

وقد كتب ثلاثين ومئة رسالة في شتى «العلوم الايمانية» التي تضمنها القرآن الكريم واطلق عليها اسم «رسائل النور» لانها تقبس من نور القرآن، وتستنير بأضوائه، لذلك فهو يقول عن نفسه بكل تواضع انه «خادم القرآن».

٤ – «النورسي» والسنة النبوية الشريفة!

تشكل «السنة النبوية الشريفة» في فكر «النورسي» معلماً ايمانياً لا ينبغي لاحد من المؤمنين ان يتجاوزه، او ينفلت منه، او يبتدع من الاقوال وطرائق العبادات ما تنكره، ولا ينسجم مع روحها العام.. ولكن «النورسي» ليس حرفياً في تعامله مع السنة ونصوصها، وليس ظرهرياً – الى حد الجمود – في التلقي عنها والفهم منها.

ولكنه يرى في الرسول الكريم محمد ﷺ «صاحب السنة» ذاتاً متقطرة من روح الكون، ونبضاً مع نبضات قلبه، وصورة مجسمة هو اطهر صور فكره وخياله.. وهو – كما يحلو له ان يعبر ايضاً – مرآة الكون، والكون مرآته.. لذلك فان سنته ﷺ، عظيمة عظم الكون، واسعة سعته، شاملة – شموله، وهي لا تتعارض – بداهة – مع سنن الكون ونواميسه، بل تلتقيان لتكونا – معاً – الناموس الاعظم للكون والحياة الذي لا تجد الانسانية حقيقة وجودها الا في كنفه والسير على هداه.

فكلام الرسول ﷺ –اذن– واحاديثه الشريفة، تنبع من عالم الشمول هذا، وتتنزل من سماء السعة العظيمة التي تتألق فيها المعاني والافكار، وتهبط من عرش «الرحمن» على قلبه فينطلق بها لسانه: «وما ينطق عن

الهوى»... فحديثه ﷺ ينبغي ان يفهم على هذا الضوء وأي توقف عند «حرفيته» او ظاهريته فحسب، هو – في الحقيقة – حصر لما لا يمكن ان يحصر، وجمود يحدد النظر ويمنعه من الرؤية العميقة والبعيدة وربما يفوت «الحرفيين» و «الظاهريين» من معاني الحديث الشئ الكثير، وقد كان من الممكن ان تتفتق لهم من معانيه ما لم يخطر لهم على بال بقليل من شمولية النظرة، واستيعابية الفهم.

هكذا يفهم «النورسي» رحمه الله السنة، وهكذا يتعامل مع نصوصها، ويستنبط الجديد والطريف.. وسيجد قارئ رسائله ما يطمئن به الى دقة نظرات الرجل، وسعة فهمه، وعمق ادراكه، وصواب ما توصل اليه من فهم جديد وواسع للسنة الشريفة..

٥ – «النورسي» والقرآن الكريم:

لقد كان لكلمة «الامام الرباني» في واحد من مكتوباته «وحد القبلة» صدى عميقاً في نفس «النورسي» رحمه الله، حتى احس وكأنه هو المقصود بهذه الكلمة، وانها تعنيه بالذات قبل غيره، لانه كان – على ما يبدو– في حيرة من امره لا يعرف كيف يبدأ رسالته الاصلاحية، ومن اين يبدأ؟ فجاءت كلمة الامام الرباني «وحد القبلة» على قدر وكأنها تتوجه اليه بالأمر ان يوحد قبلة فكره وروحه وقلبه، ويجمع «الكل» على «القرآن الكريم» ويتلقى منه وحده ويأخذ عنه ويعتبره الاستاذ والمرشد فيجلس بين يديه ويتلقى منه الاسرار والفيوض والرحمات، فاستمع اليه حيث يقول:

«كنت اجلس بين يدي القرآن، ادير طرفي فيه، وانتظر انكشاف أسراره وكنوزه، واطلب ببركته قضاء حاجاتي كلها – حتى الدنيوية منها

– وكان يحصل مطلوبي، ويقضي مرادي، من حيث لا احتسب، وبصورة لم تخطر على البال».

وقد بلغ من تشربه العظيم بالقرآن الكريم، واستيعابه لاغراضه ومقاصده وغاياته، انه كتب الكثير من «رسائل النور» في ظروف قاسية، ولم يكن في متناول يده من مصادر سوى القرآن نفسه.

ويكفي ان تعلم انه الف كتابه الفذ في التفسير «اشارات الاعجاز في مظان الايجاز» اثناء تنقله في ساحات القتال، وبين الخنادق والملاجئ في الحرب العالمية الاولى في الجبهة التركية الروسية، ولم يكن معه من مصادر التأليف سوى القرآن وحده.

وقد تأثر «النورسي» بأساليب القرآن وطرائق دعوته تأثراً عظيماً، فملكت عليه لبه ومشاعره، واتخذ من منهجه – في الجمع بين هتاف العقل ونداء الروح في الآية والسورة – مثالاً يحتذى به، وينسج على منواله في كتاباته التي يقول عنها في مقدمته «للمثنوى العربى» انه سلك فيها «طريقاً غير مسلوك في برزخ بين العقل والقلب» فاستمع اليه يقول:

«ان السعيد – يقصد نفسه – في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات، كان ساعياً بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب، كالامام الغزالي، والامام الرباني، ومولانا جلال الدين الرومي».

فلا يفتح باباً من ابواب القلب الا تحت نور من انوار العقل، ولا يلج منفذاً من منافذ العقل الا على جناح من اجنحة القلب..

وهذا بالفعل ما تطالعنا به كتاباته في كل رسائله:

منطق عقلي يمضي على مهل ويمضي، حتى اذا اوشك ان يصلب ويثقل، ويصدم النفوس والعقول بثقله وصرامته، بادره القلب برفيفه والروح بخفته ورشاقته، فاذا به يشف ويخف ويمضي منساباً الى النفوس عذباً سائغاً، وفراتاً سلسبيلاً، يسعفه قلم مطواع قادر على الاداء والتعبير عن اعقد معضلات الفكر، وادق خفايا الروح والوجدان، ضمن عبارة هي الغاية في القوة والاشراق والوضوح، وجملة هي القمة من جمال البيان وسحر التعبير، فلا غرو بعد هذا كله ان يشيد «محمد عاكف» شاعر تركيا الاكبر بقدرة النورسي الادبية، وطاقاته التعبيرية، وبلاغة اسلوبه، ورشاقة ادائه، حتى ليضعه الى جانب كبار ادباء العالم. ويصرح بين جمع من العلماء: «ان شكسبير وهيجو لا يبلغان الا الى مرتبة تلميذ النورسي في الادب والفلسفة».

٦ - الاعتدال في منهج «النورسي».

ومنهج «النورسي» المعتدل، ونزاهة فكره، وكرهه للتعصب، واجتنابه تجريح الآخرين من دون تفحص وتدقيق، ورفضه ان يتخذ موقفاً مسبقاً من الجماعات قبل التعرف على افكارهم ومذاهبهم في مظانها الاصلية.. كل هذه الصفات - والتي هي صفات العلماء الحقيقيين - هي التي اهلت «النورسي» لكي يتناول - بتجرد ونزاهة فكرية - موضوعاً خطيراً من المواضيع التي شغلت وما زالت تشغل عقول المسلمين وقلوبهم، الا وهو «السنة النبوية وحقيقتها الروحية» وينثره في رسائله فيبدع فيه ايما ابداع ويأتي فيه بالجديد والمفيد.

* * *